

محاضرة
من أسعد الناس

لفضيلة الشيخ

خالد بن عبد الله المصلح

www.almosleh.com

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه أحمده سبحانه وأثني عليه الخير كله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع سنته بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ..

فهذا هو اللقاء الثاني من اللقاءات التي نتناول فيها دروساً من هدي النبي ﷺ أيها الإخوة الكرام .. قرأتم ما اختاره إخوانكم عنواناً لهذا اللقاء وهو: من أسعد الناس؟ إن هذا العنوان اشتمل إشارة إلى ما يسعى إليه الجميع وما يتسابق إليه الناس جميعاً على اختلاف أصولهم وأجناسهم وجهاتهم وألوانهم وألسنتهم، فالكل يسعى حثيثاً ويسير سيراً حاثاً لإدراك هذه الغاية وهي السعادة. السعادة التي يحصل بها للإنسان نعيم الدنيا، هذا هو حال كثير من الناس في سعيهم وراء هذا الأمر، فإن كثيراً من الناس يقصرون في طلب السعادة على هذه البرهة القصيرة والفترة الوجيزة من مراحل العمر ومن منازل الإنسان وهي منزلته في هذه الدنيا، وهذه الدنيا وصفها الله جل وعلا فقلل شأنها في كتابه وبين أنها متاع قليل، فمهما كانت من الكمال والصفاء والجودة والجمال فإنها مؤذنة بالزوال، وهي راحلة ومنتقلة، ينتقل منها الناس ويصيرون إلى دار يستقرون فيها هي التي ينبغي لهم أن يسعوا إلى تحقيق السعادة فيها.

إن الناس أيها الإخوة في هذه الدنيا يفسرون السعادة بتفسيرات عديدة، فمنهم من يرى السعادة جمع المال، ومنهم من يرى السعادة جمال المنظر، ومنهم من يرى السعادة جمال المركب، ومنهم من يرى السعادة في الجاه والمنصب، وكل هؤلاء أصابوا شيئاً وأخطؤوا أشياء، فإن هذه الأمور وإن كانت من أسباب السعادة في هذه الدنيا لكنها ليست هي السعادة الحقيقية التي ينبغي للمؤمن أن يسعى لها وأن يبحث الخطى في تحصيلها وفي إدراكها ولذلك تجد أن كثيرين ممن لم يمكنوا من هذه الأمور أو ممن أكثرها يلتذون ويجدون من الانشراح والطمأنينة وسعة الصدر والابتهاج والسرور ما لا يجده من ملك هذه الأشياء جميعاً أو ملك أكثرها. وذلك يبرهن ويبين أن السعادة ليست في هذه الأشياء، إنما هذه وسائل وآلات ووسائط قد يدرك بها الإنسان بعض مقصوده، لكنها لا تكون مقصوداً وغرضاً على أي حال من الأحوال.

أيها الإخوة الكرام .. إن أسعد الناس هو رسول الله ﷺ لاشك في هذا ، فإن الله جل وعلا قد بين عظيم ما من به على رسوله من السعادة والكمال في انشراح الصدر فقال في سورة من كتابه الكريم: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ . وبهذه الأمور الثلاثة كمل الله لرسوله ﷺ أسباب السعادة ؛ شرح له صدره ، فكان من أشرح الناس صدرًا وأوسعهم قلبًا وأقرهم عينًا وأكملهم حياة ﷺ ثم إن هذه السعادة لم تكن مقتصرة على انشراح الصدر بل هي سعادة موطئة لسعادة عظيمة في الآخرة، فقال جل وعلا: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ (٢) فخفف الله عن رسوله ﷺ الآثام والأوزار فوضعها عنه ﷺ فلم يكن محملاً بما يحمله كثير من الناس من الأوزار التي هي من أعظم أسباب ضيق الصدر ، من أعظم أسباب قلة السعادة ، بل أكد أسباب زوالها ، فإن السعادات تذهب وتهرب عند مقارفة السيئات ، ولذلك ذكر الله جل وعلا بعد شرح الصدر تخفيف الوزر عن رسوله ﷺ ، ذكر ثالث ما من به سبحانه وتعالى على رسوله فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ولاشك أن رفع الذكر من سعادة المرء ولذلك خصه الله جل وعلا بالذكر .

أيها الإخوة إذا كان أكمل الناس سعادة رسول الله ﷺ وهو ﷺ قد حاز من ذلك السابق وحصل على أعلى درجات الكمال ، فلننظر ما الذي كان يتمتع به رسول الله ﷺ من أسباب السعادة لتحصل لنا ؟ فإن السعادة التي حصلها رسول الله ﷺ لم تكن لذاته يعني لم يكن أمراً مقترناً بذلك الشخص دون أسباب تؤهل لتحصيله وأسباب تؤدي إلى تلك النتيجة ، إن الله عز وجل قد ذكر في هذه السورة الكريمة السبب الذي حصل به رسول الله ﷺ السعادة ، فبعد أن ذكر تلك المن الثلاث التي افتتح بها السورة ، قال جل وعلا في آخرها : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿١﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٢﴾ ﴾ (٣) هذا هو سبب السعادة وسر ذلك الشرح وسبب ذلك التخفيف وسبب رفع الذكر الذي أدركه رسول الله ﷺ ولذلك

(١) الشرح : ١-٣ .

(٢) الشرح : ١-٤ .

(٣) الشرح : ٧-٨ .

من أراد أن يأخذ من السعادة التي نالها رسول الله ﷺ في الدنيا نصيباً فليحرص على سلوك هديه فإنه بقدر التزام الإنسان بهدي رسوله ﷺ بقدر ما يكون معه من انشراح الصدر وتخفيف الوزر ورفع الذكر ، واستمع إلى ما قال ابن القيم رحمه الله في هذا ، يقول رحمه الله : ((شرح الله صدر رسوله ﷺ أتم الشرح ، ووضع عنه وزره كل الوضع ، ورفع ذكره كل الرفع ، وجعل لأتباعه - أي لمن اقتفى أثره وآمن به واهتدى بسنته - حظاً من ذلك - يعني من الشرح و من وضع الوزر و من رفع الذكر - إذ كل متبوع فلأتباعه حظ ونصيب من حظ متبوعهم في الخير والشر على حسب اتباعهم له فأتبع الناس لرسول الله ﷺ أشرحهم صدرًا و أوضعهم وزرًا وأرفعهم ذكرًا)) وهذا فضل من الله الذي من به على الأمة، أن جعل ما من به على رسول الله ﷺ من تلك المنن ومن تلك المنح ومن تلك الفضائل يمكن للعبد أن يدركها بسلوك سبيل رسول الله ﷺ بأن يفعل كما فعل وأن يعتقد كما اعتقد ، وأن يعمل كما عمل ، فبقدر متابعة الإنسان لرسول الله ﷺ قولاً وعملاً ، حالاً واجتهاداً ، بقدر ما يكون له من ذلك نصيب من السعادة التي نالها ﷺ ، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله : ((وكلما قويت متابعة العبد علماً وعملاً وحالاً واجتهاداً، قويت هذه الثلاث - التي هي شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر - حتى يصير صاحبها أشرح الناس صدرًا وأرفعهم في العالمين ذكرًا)) نسأل الله عز وجل من فضله.

أيها الإخوة الكرام ، إن الله جل وعلا قد أمرنا باتباع رسوله ﷺ ، وأبان لنا في كتابه الحكيم فوائد ذلك حثاً لنا على المسابقة إلى هدي رسول الله ﷺ فمن جملة ما بينه سبحانه وتعالى لنا من فضائل اتباع رسول الله ﷺ ما ذكره في قوله آمراً عموم الناس: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ ثم قال: ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٤).

أيها الإخوة إن الهداية أعظم مطلوب يطلبه الناس في هذه الدنيا ، ولما كانت الهداية إلى الصراط المستقيم أعظم مطلوب ، كان سؤالها في أعظم سورة ، سورة لم يقرأ مثلها في

(٤) الأعراف : ١٥٨ .

التوراة والإنجيل ظن في سورة تتكرر في صلاتك مرات في اليوم إما قراءة أو تأمينا في قوله تعالى: ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾^(٥). هذه الهداية التي نسالها الله عز وجل في كل ركعة من صلاتنا ، لفظاً أو تأمينا سبيل تحصيلها اتباع الرسول ﷺ ولذلك قال الله جل وعلا: ﴿ وَاتَّبِعُوا ﴾ أي واتبعوا هذا النبي الأمي ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي رجاء أن تحصل لكم الهداية ، ومما حث الله سبحانه به هذه الأمة على اتباع الرسول ﷺ أن جعل اتباعه والاستجابة لندائه ﷺ سبباً للحياة الكاملة والحياة الطيبة فقال الله جل وعلا مخاطباً المؤمنين ومنادياً أهل الإيمان: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾^(٦) أمر الله جل وعلا في هذه الآية بالمسارعة إلى الاستجابة إلى الله ورسوله ، ثم بين ما الذي يدعونا إليه رسول الله ﷺ في أمره ونهيه وفي قوله وتركه وفي فعله في كل ما دعانا إليه قولاً وفعلاً ، ما الذي يريده ﷺ من ذلك ؟ انه يريد لنا الحياة الكاملة ، يريد لنا الحياة الكاملة في هذه الدنيا والحياة الكاملة في الآخرة ، أما الحياة الكاملة في الدنيا فإن أسعد الناس وأكملهم حياة هم أتباع رسول الله ﷺ فالحياة الكاملة إنما تحصل بالاستجابة لرسول الله ﷺ ، أما الآخرة فأتباعه لهم الجنة ، التي قال جل وعلا في وصفها: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾^(٧) انظر كيف قال: ﴿ الْحَيَوَانُ ﴾ ، أتى بصيغة فعْلان التي هي تدل على امتلاء الحياة أي الحياة الكاملة التامة التي يتمتع بها الإنسان وينال فيها كمال مبتغياته هي الدار الآخرة وذلك في الجنة نسأل الله أن نكون من أهلها فإذا كان هذا شأن الإنسان في هذه الدنيا إذا اتبع رسول الله ﷺ وهذا شأنه إذا اتبع رسول الله ﷺ في الآخرة أي أن الله يجزيه الحيوان وهي الجنة التي أعد الله فيها لعباده المتقين الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كان هذا حافزاً لأولي الألباب وأصحاب البصائر والعقول الذين تنفذ بصائرهم وأبصارهم من هذه الدنيا إلى الآخرة ، كان حافزاً إلى مزيد من عمل صالح واقتفاء للنبي ﷺ في الظاهر والباطن ، واعلم أن كل هدي ، وكل سنة

(٥) الفاتحة: ٦-٧.

(٦) الأنفال : ٢٤ .

(٧) العنكبوت: ٦٤ .

صغيرة أو كبيرة ظاهرة أو باطنة ، دقيقة أو جلييلة من سنن النبي ﷺ هي من أسباب الحياة فبقدر أخذك من سننه وهديه وعمله ﷺ بقدر ما تأخذ من أسباب الحياة الدنيا ومن أسباب الحياة في الآخرة ، إن مما حث الله سبحانه وتعالى به أهل الإسلام وحث به من قرأ القرآن أن رتب على اتباع النبي ﷺ الفلاح فقال: ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ ^(٨) أي الذين أدركوا الفلاح الكامل ، والفلاح هو من أتم ومن أبلغ كلمات العرب في حصول المقصود (المرغوب) والأمن من المرهوب، لأن من أفلح فقد أدرك رغبته وحصل طلبته وأمن مما يخاف ويحذر ، ولذلك إذا أبحر الله بالفلاح للعبد فإنه قد بلغ الغاية في النعيم وقد بلغ الغاية في تحصيل مطلوباته والأمن مما يكره ، أولئك هم المفلحون لماذا لأنهم آمنوا بالله عز وجل آمنوا برسوله ﷺ وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه والنور الذي أنزل معه هو كتاب الله عز وجل وهو سنة رسوله ﷺ السنة التي جاء بها ﷺ. إن مما حث به ربنا سبحانه وتعالى الناس من اتباع سنة النبي ﷺ أن جعل إتياعه ﷺ سبباً لمحبهته جل وعلا فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ ^(٩) فبقدر ما معك من إتياع سنة النبي ﷺ بقدر ما يكون معك من محبة الله والإنسان يسعى لأن يكون محبوباً لله عز وجل إذا كنت ممن يسعى لذلك فاحرص على هدي النبي ﷺ.

أيها الأخوة إن النصوص التي حث الله عز وجل فيها هذه الأمة على إتياع النبي ﷺ كثيرة جداً ولا نستطيع على أن نأتي على أكثر مما ذكرنا لقصر الوقت . إلا أن في سيرة الصحابة وفيما عملوه وفيما حفظته دواوين السنة لنا من هديهم في إتياع رسول الله ﷺ وما جنوا به من البركات والخيرات شاهد على ذلك فإن جيل الصحابة أكمل الأجيال وهو خير القرون كما قال ﷺ ((**خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**)) ^(١٠) خيريتهم لم تكن لأنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وفلان وفلان من الصحابة إنما خيريتهم بما كانوا

(٨) الأعراف : ١٥٧ .

(٩) آل عمران : ٣١ .

(١٠) أخرجه البخاري في الشهادات برقم ٢٤٥٨ .

عليه من العمل بالمسابقة باتباع النبي ﷺ الصحابة لهم تمام انقياد لما كان يفعله ﷺ ومن ذلك نموذج حفظته السنة وهو أن رسول الله ﷺ كان يصلي بأصحابه في إحدى المرات فخلع نعليه وهو في الصلاة فما كان من الصحابة رضوان الله عليهم إلا أن خلعوا نعالهم تأسياً واقتداء برسول الله ﷺ لبس الخاتم فلبسوه ، خلع الخاتم فخلعوه ، وهكذا هم في اتباعه ﷺ حتى أنهم حفظوا لنا حركة لحيته وهو يصلي لشدة تأسيهم به ونظرهم إلى أفعاله ، ليقنتوا بها ويتأسوا ، ومن عجيب ما حفظوه لنا أن حفظوا لنا عدد ما في لحيته ورأسه من الشيب فحفظوا أن ما في لحيته ورأسه سبع شعرات من الشيب فقط لا غير ، وهذا دليل على أن الصحابة كان رسول الله ﷺ تحت المجهر عندهم يرقبون فعله وينظرون إلى ما يفعل ويبادرون ، ليس نظر ترفه وتفكه وحب استطلاع إنما نظر إتباع واهتداء ، فكانوا يقتدون به ويهتدون به في دقيق الأمر وجليله.

أيها الأخوة الكرام إن سؤالاً يتبادر إلى الأذهان ولا بد له من جواب ، لماذا إذا كان الوضع كذلك وإذا كانت هذه النصوص واضحة في إن رسول الله ﷺ أسعد الناس وأنه ﷺ حصل الكمال في انشراح الصدر ﷺ وأن طريق السعادة هي الطريق التي سلكها ﷺ . لماذا يتخلف كثير من الناس عن سلوك هذا الطريق ؟ إن الجواب على هذا السؤال هو ما قاله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه : ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات))^(١) إن الطريق فيه نوع صعوبة لاسيما في مبادئه ، لما كان الطريق أيها الأخوة الطريق في تحصيل هذه السعادة فيه عسر وصعوبة ، يحتاج إلى مجاهدة النفس ، يحتاج إلى أن يتخلى الإنسان عن مألوفه وما اعتاده وما شب عليه وربى إلى النظر في هدي النبي ﷺ في قيامه وعوده وفي ذهابه ومجيئه في دخوله وخروجه في نومه واستيقاظه في معاملته لربه ومعاملته للخلق في جميع شأنه إذا نظر إلى ذلك فإنه يحتاج إلى عزم أكيد ورغبة صادقة وجهد متواصل لإدراك ذلك الذي قرأه واطلع عليه ولما كان الأمر يعسر على كثير من الناس كان أكثر الناس في تخلف عن سلوك هذا الطريق لكن يا أخي اسلك هذا الطريق واستعن بالله عز وجل ، فإن الله سبحانه وتعالى إذا علم من عبده الصدق يسر له سبل الهدى ويسر له سبيل الخير وأعاناه وجعله يجني من ثمرات وبركات إتباع النبي ﷺ خيراً كثيراً في الدنيا

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها برقم ٥٠٤٩.

يعينه ذلك على مواصلة الإتيان والاهتداء بهديه ﷺ فأحثكم يا أخواني على قراءة سيرة النبي ﷺ وحفظ سنته ومطالعة هديه فإن السلف الصالح كانوا يمضون أوقات طويلة ويمضون أعمار مديدة في حفظ سنة النبي ﷺ وفي العمل بها وفي طلبها وكان أحدهم إذا بلغه الحديث عمل به لكونه سمعه عن رسول الله ﷺ وإن كان في نفسه شيء من معناه حتى أن الإمام أحمد رحمه الله عمل بسنة قال: لم أعمل بها إلا مرة واحدة لما بلغني الحديث وكان رأيهم رحمه الله خلافاً لما دل عليه الحديث لأحاديث أخرى لكنه لم تطب نفسه أن يترك تلك السنة وقد بلغه عن رسول الله ﷺ فيها نص أو عنه ﷺ حديث ينبغي لنا أيها الإخوة أن نحصر على الاهتداء بهديه ﷺ وأن نحتسب الأجر في ذلك عند الله سبحانه وتعالى والطريق والله الحمد ميسر وسهل لكن يحتاج إلى عزيمة وجد وصدق رغبة والإنسان إذا استعان الله أعانه ، فليقرأ مثلاً من الكتب الميسرة في عرض سيرة النبي ﷺ وهديه كتاباً لابن القيم رحمه الله زاد المعاد في هدي خير العباد فإنه من أنفع الكتب التي جمعت لنا هديه ﷺ وسيرته ، من ذلك أيضاً الكتب التي حفظت لنا نصوص أفعاله وأقواله ﷺ كرياض الصالحين وبلوغ المرام ، وما أشبه ذلك من الكتب التي ملئت بالأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ مما يعين الإنسان على اقتفاء هدي النبي ﷺ أن يحضر مجالس العلم وأن يسمع أشرطة العلم فإن فيها من بيان هديه ﷺ وسنته ما يعين الإنسان على اقتفاء هدي النبي ﷺ واعلم يا أخي أنك لن تحصل بركة اتباع النبي ﷺ من فعل سنة أو سنتين مرة أو مرتين بل داوم واستمر وجاهد فإنك إذا استمرت على ذلك وصبرت وجدت بركة ذلك بعد حين ، فأسأل الله عز وجل أن يبلغنا وإياكم هدي رسوله ﷺ وأن يعيننا على التزام سنته وأن يسلك بنا سبيله إنه ولي ذلك والقادر عليه.